صحافيو العالم المغاربة

طوينا »ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعا: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن يئن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

عبد الصمد جطيوي

أقــوى صفحـات كتابـي كمراسـل حـربـي 2/2

بعد الحلقة الأولى التي روى فيها جطيوي حكايته مع عشق الصحافة من بلدته النائية وتحقيق حلمه بولوج معهد الصحافة بالرباط وسفره إلى الخليج، يحكي عبد الصمد في هذه الحلقة تجربته مع "سكاي نيوز عربية" كمراسل في أسخن المناطق بالعالم، ومنها سوريا ومالي، مع بعض الطرائف الممزوجة بخوف عارم. تجربة أخرى لصحافي مغربي في رحاب الإعلام الدولي.

» حاوره: **يوسف بجاجا**
bajajayoussef@gmail.com

← متى كان أول يوم لك في التجربة الجديدة بالإمارات؟

■ يناير 2012 أول يوم عمل لي في «سكاي نيوز» عربية بأبو ظبي، تجربة دولية ومعايير جديدة كليا في العمل.

قاعة تحرير كبيرة ومحررون وصحفيون يعملون على مدار الساعة ودون توقف، سيل من العمل المتواصل وعلى مدار الساعة، دوام طويل ومرهق لكن تحس بأنك تتعلم كل يوم، بالطبع المدرسة مختلفة لكن ازدادت قناعتي بأن تكويننا في المغرب ممتاز جدا جدا.

في فبراير 2012 تم تكليفي بتنشيط لقاءات مباشرة وحية في قمة أبوظبي للإعلام وكانت ناجحة بكل المقاييس، قمت باستضافة كبار الشخصيات في مجال الإعلام والإعلام الجديد، بعدها سيتم تكليفي بتغطية الحرب في مالي، كان الأمر متعبا، فأنت لا تعرف المكان وتعتبر عدوا على الأقل للقاعدة.

لكن قبل السفر إلى مثل هذه الأماكن، يجب على المراسل في المناطق الساخنة أن يقوم بتدريب يسمى heafat training ، حيث يتلقى الأبجديات الأولى للمراسلات في المناطق التي تعرف نزاعا وحربا، وكذلك معلومات عن الإسعافات الأولية التي يمكن القيام بها لإنقاذ نفسه والفريق المرافق له. ولأنني مراسل دولي فقد استفدت من تدريب متخصص في هذا المجال، وسيكون مفيدا لي في التجارب اللاحقة خاصة في سوريا ومالي.

← ولذلك بالضبط ستكون عشت أحداثا مؤلمة لا يمكن نسيانها؟

■ بالتأكيد، في تغطياتي الدولية أعيش عددا من الأحداث المؤلمة أحيانا والتي تبقى عالقة في ذهني، حتى إنني أقرر عدم السفر نهائيا مرة أخرى إلى مثل هذه الأماكن، لكن سرعان ما تعود حليمة الى عادتها القديمة، إنه حب المهنة.

فمثلا في مالي، وقعت لي قصة طريفة سأرويها لك الآن، لكن قبل ذلك، أتذكر رحلة أخرى قادتني إلى ليبيا، شكلت في الحقيقة واحدة من الأسباب التي جعلتني أفكر في «تغيير العتبة».

عندما كنت صحفيا بقناة «ميدي1 سات»، دعيت في شهر غشت من عام 2008 لتغطية احتفالات الفاتح العظيم مع وفد وزاري مغربي يرأسه السيد الوزير الأول آنذاك عباس الفاسي، وضمن الوفد كان وزير الخارجية الطيب الفاسي الفهري وآخرون.

لكن الاحتفال لم يكتمل، على الأقل من وجهة نظر المغرب، حيث اضطر الوفد المغربي إلى الانسحاب من منصة الوفود المشاركة، وأتذكر وقد كنت جالسا بالقرب من المنصة الرسمية، كيف ارتبك الوفد المغربي فجأة عندما علمنا أن البوليساريو سيشارك باستعراض عسكري، شاهدت وزير الخارجية وهو يحرك هاتفه ويتحدث فيه بشكل ملفت، كان واضحا أنه يتحدث إلى سلطة أكبر منه، وفجأة نهض عباس الفاسي وخرج من المنصة مسرعا، وقد أخبرونا بعدها أن المغرب احتج على إقحام البوليساريو في الاحتفال...

← وبداعي السبق الصحفي، طلبت من السيد وزير الخارجية التعليق على ما حدث، فسألته: ما تعليقك سيدي الوزير على ما حدث وهل توصلتم بأي توضيح؟

■ فأجابني ساخرا وهو يلوك سيجارة بين أصابعه:

«ماذا؟، يبدو أنك جديد على الصحافة، اسأل طاقم القناة الأولى ليعلمك الخدمة مع المخزن».

لقد حز في خاطري هذا الكلام ومايزل محركا لي ودافعا إلى المزيد من الاجتهاد لتعلم الخدمة، لكن طبعا ليس مع المخزن.

إلى مالي سأشد الرحال، وهنا دعني أشير إلى أن المغربي في القنوات الكبيرة يحتاج كثيرا من الدعم، وللأسف لا تجد تلاحما بين المغاربة بخلاف ما تراه عند بعض الجنسيات الأخرى، فالمغربي في الغربة «كل واحد يلغي بلغاه».

غادرت أبوظبي مساء في اتجاه الدار البيضاء ثم سافرت في اتجاه باماكو، وقد وصلت الساعة الخامسة صباحا، وكان أول انطباع أحسست به في المطار الذي كان فقيرا ببنيات مهترئة بالإضافة إلى الفوضى، وتطويق أمني كبير وارتباك واضح على مستوى تسيير المطار.

سألت أحدهم، وكان موظفا في المطار، ماذا يحصل بالضبط؟ فرد وقال: إن هناك خلافا بين جنرال يقود الحرس الرئاسي والنقيب المتمرد «آيا سانودو» الذي قام بالانقلاب الأخير قبل الحرب مع القاعدة.

فهمت أن المشكل داخلي في الأصل، وأن الحرب مظهر من مظاهر الانقسام المتفجر منذ مدة.

كنت أحمل جهاز «بيغان» معي، وهو أساسي للعمل في مثل هذه المناطق، إنه جهاز متطور يستعمل في المراسلات المباشرة عبر الساتل، والذي لم تعثر عليه الشرطة التي قامت بتفتيش أغراضي ولم تتعرف عليه، حيث سألني أحدهم: «هل هذا جهاز حاسوب؟».

أجبته: نعم.

فأخلى سبيلي.

أنا متأكد أنه جهل منه وقلة خبرة، لو تعرفوا على الجهاز لدخلنا في سين وجيم... اسأل الشرطة المغربية مثلا، ماذا تفعل عندما تكتشف هذا النوع من الأجهزة، تقيم الدنيا ولا تقعدها، ممنوع ممنوع ممنوع، قد يكون ممنوعا أكثر من المخدرات أو المتفجرات...

مكثت يومين هناك، كانت خلالها الأخبار الواردة من الجنوب تشير إلى سيطرة القاعدة على «تمبوكتو» والمناطق المجاورة.

قررت السفر إلى «تمبوكتو»، عبر الجو لم يكن مسموحا، فركبت المغامرة البرية، التقيت بصحفيين ألمان، طلبوا مني أن نكون فريقا واحدا ونسافر سويا، وافقت على طلبهم فشددنا الرحال في الصباح الباكر، حيث كانت الطريق كلها صحراء قاحلة، ومنعرجات لا يعرفها إلا أصحاب الدار.

بعد ست ساعات من المسير، بلغنا مفترق طرق، سائق الفريق الألماني طلب منا التوجه يسارا، أما سائقي فنصحني بالتوجه يمينا، هناك، التجربة والخبرة تلعب دورا كبيرا، وبعد ساعات أخبرني السائق أن زملاءنا الألمان الذين لم يسلكوا نفس طريقنا تعرضوا لهجوم مباغت من طرف مسلحين. لقد نجوا من الاختطاف بأعجوبة.

وصلت تمبوكتو حوالي الساعة السابعة مساء، ومن المدخل الغربي للقناة طلعت على الهواء مباشرة، حيث كانت هناك آليات محروقة وسيارات بها أدوية....

جولة في تمبوكتو جعلتني ألتقي بعدد من المغاربة، كان هناك خوف على محياهم ومما ينتظرهم، لكن بالمقابل يلقون اللوم على السفارة هناك، يقولون انها لم تتواصل معهم ولا تبدي حرصا على سلامتهم على غرار ما فعلت فرنسا وحتى الجزائر التي أخلت عددا من مواطنيها.

اغتنمت الفرصة واتصلت بالسفير المغربي في «تمبوكتو» حسن الناصيري، وفي حقيقة الأمر ساعدني في كثير من المواضيع، كما بين لي عددا من المخاطر التي تتربص بالأجانب خاصة الصحفيين في مالي، ولقد كان متابعا لكل تحركاتي.

← يبدو أن زيارة العمل بمالي تركت في وجدانك الكثير من الأحاسيس لدرجة ما تزال تتذكر أدق تفاصيلها؟

■ كانت قيادة العمليات الفرنسية منشغلة بالقبض على شخص قيل إنه من زعماء أنصار الدين في تمبوكتو، ومايزال مختبئا في منازل يغيرها بين الفينة والأخرى.

رافقت الوحدة الخاصة الفرنسية في عين المكان مرتين، حيث اقتحمت أحد المنازل لكن لم تعثر له على أثر. المواجهات بدأت تقل وتنتقل تدريجيا نحو، الجبال، نحو «غاوو» تحديدا، معقل المسلحين.

قررت المغادرة باكرا، فالطريق إلى «غاوو» خطرة وربما نغير الاتجاه إلى باماكو أو نبيت في سيغو...

على الساعة الرابعة صباحا، أذان جميل ينبعث من مسجد عتيق قريب من فندق «لا كولومباو» الحمامة حيث كنت أقيم.

صباح العاصمة التاريخية لمالي ذات الملامح المغربية بارد قليلا، لبست ما تبقى من ملابسي، فمعظمها أعطيته للمساكين الذين يتحلقون حولي صباح مساء معتقدين أنني أوروبي غني.

دارت العجلات، الطريق صحراء ونقط التفتيش باتت مزعجة، خاصة وأننا نقصد المدينة الأخطر، والتي تعتبر المعقل الأخير للمسلحين.

توقفت المركبة عند نقطة للجيش تسمى

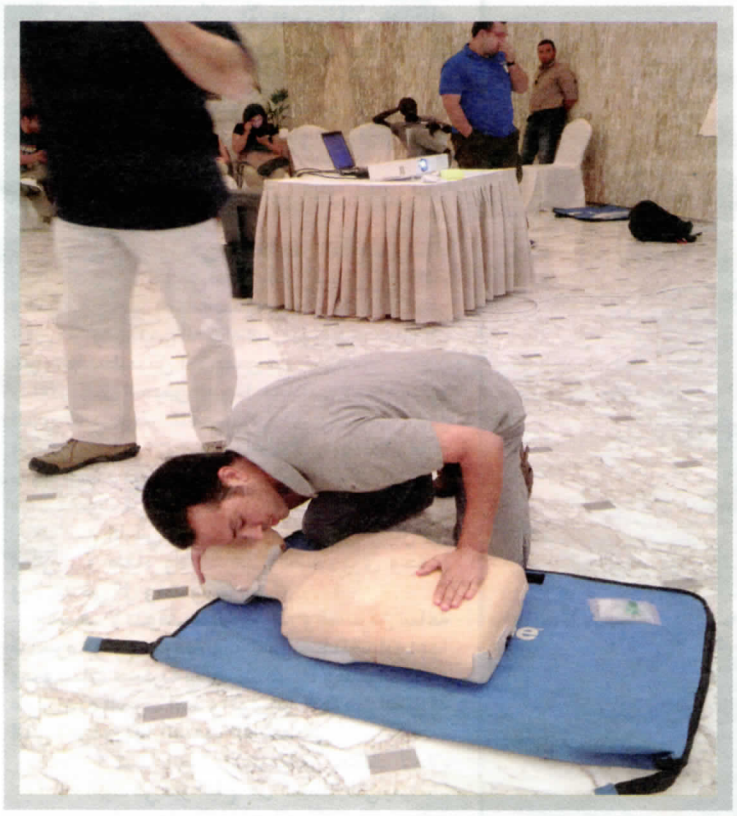

عبد الصمد جطيوي في حصة تدريب المراسل الحربي وتقديم الاسعافات

جطيوي بساحة القتال بحلب سوريا

«سان».

الجندي: أوراق السيارة

السائق: نعم ها هي، إنهم صحفيون.

الجندي: اهه، غير مسوح لكم بالمرور، ارجعوا من حيث أتيتم.

أنا: سيدي هل أستطيع الحديث إلى رئيس النقطة.

الجندي: أنا الرئيس هنا يجب عليكم العودة وإلا... دفعنا له رشوة، الضرورات تبيح المحظورات، تركنا نمر. هنا يمكنك أن تشتري ما تشاء ومن تشاء، بالمال فقط.

وصلنا إلى معبر بحري، بالمال أيضا سمح لنا بعبوره.

بعد ساعة من الإبحار في نهر جميل وهادئ، زمن وضعت رجلي على الجزء اليابس من الجهة الأخرى...

طلبت من السائق الإسراع، فهاتفي لا يكف عن الرنين.

أنا: ألو نعم.

المتصل كان قناة «سكاي نيوز عربية».

بالكاد وبعد جهد جهيد وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى «بامبارا واندي»، بلدة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة وعشرين شخصا، لكنهم الآن أقل بكثير، فقد هرب جلهم خوفا من الحرب.

طلبت من المصور أن يجهز نفسه.

أما أنا فمنشغل بالتركيز وبتنظيم المعلومات، الخبر العاجل أن القرية آخر نقطة مر بها المسلحون...

أنا جاهز للمباشر...

بين الفينة والأخرى، كنت أرمق رجلا يتردد على السائق، يلبس الأبيض ويحمل هاتفا، ذا لحية شعثاء، وسروالا قصيرا لا يبلغ كعبيه...

جاءني أحد السكان مسرعا وهو يتحدث لغة محلية

« أيها الشاب أرجوك غادر المكان.

أنا: لماذا؟

الرجل: المسلحون قريبون من هنا.

ليس لدي وقت، بقيت خمس دقائق على المباشر.

كلما لمحت صورة الرجل الغريب أسمر اللون صاحب الجلباب الأبيض، شعرت بالخوف، وكلما استمعت لكلام هذا الرجل الذي اشتد صراخه أحسست بالرعب وبرغبة في الهروب.

بدأ المباشر...

المذيعة:

«يتواصل زحف الجيش المالي مدعوما بالقوات الفرنسية في اتجاه الشمال، آخر الأخبار تفيد بدخوله إلى «غاوو» واشتباكات عنيفة تدور هناك...للمزيد من التفاصيل ينظم إلينا مراسلنا من «بامبارا واندي» عبد الصمد جطيوي».

أخذت الكلمة واسترسلت في الحديث، وأنا على الهواء، ألمح العشرات من المركبات تمر بسرعة البرق على بعد أمتار مني، إنهم المسلحون يتجهون إلى «غاوو»... نسيت أن أطلب من المصور التقاط صورة لهم، هو نفسه لم يفعل ذلك من شدة الخوف.

حينها فكرت في موت حقيقي أو في اختطاف، وفكرت أيضا في ابنتي الصغيرة وزوجتي الوحيدة في أبو ظبي.

وبدأت أحس بقدمي ترتعشان، عندها أنهيت المباشر.

صرخت: يا شباب بسرعة اجمعوا المعدات، علينا الهروب.

بعد تفكير عميق، أخبرني الدليل أن خطر المسلحين لم يعد قائما، لقد أخبرهم الرجل الغريب أبيض اللباس أننا مغاربة مسلمون، ولأول مرة يشفع لي كوني مغربيا فحمدت الله أني مغربي وجوازي أخضر اللون.

عشت أيضا قصة مثيرة ومرعبة

في سوريا حينما تعرضت للتوقيف من طرف أحد الفصائل المتناحرة هناك. احك لنا بعضا مما جرى؟

■ في سوريا، وتلك قصة أخرى، تعرضت للتوقيف من طرف أحد الفصائل، الحمد لله أنه لم يتطور إلى اختطاف، لكن قبل هذا عشنا ظروفا قاسية ولحظات خوف لا تنسى.

دخلت حلب من جهة باب الهوى بين تركيا وسوريا، كنت قد نسقت مع الفصيل المتواجد هناك، ولا مانع لديه بالدخول الى ريف حلب الشمالي.

التقيت قائدا ميدانيا يدعى أبو الجود، وهو ضابط سابق في الجيش السوري، معروف عنه أنه مقاتل شرس، أوامره مطاعة من كل العناصر في المعبر. لاحظت أيضا الاحترام الذي يكنه له الجنود الأتراك المرابطون على الطرف الآخر من المعبر... استقبلني بلغته الحمصية، وقال لي «مرحبا بأهل المغرب، انتم على راسنا».

قلت له: أريد فقط تعميق علاقتنا والتعارف بيننا، والاشتغال معكم إن أمكن، هل لديكم جبهات ساخنة أو هجمات تخططون لها؟؟؟».

أخبرني بكل ثقة: «مرحبا بك أخي سأخبرك لاحقا بكل شيء».

كان الحديث حينها عن الكيماوي الذي استعمل في خان العسل، أخبرني انه بإمكاني التصوير وتوثيق «جرائم الكيماوي» التي وقعت في البلدة. كما يمكنني زيارة الألوية المرابطة على الحدود الفاصلة بين المناطق التي يسيطر عليها المسلحون والمناطق التي يسيطر عليها الجيش السوري.

في حديثه أحسست بأنه غير راض عن أداء الجيش الحر، وفهمت منه أن الجيش الحر ليس متفقا بالضرورة على نفس الأهداف ولا حتى القيادة.

قطع السائق حديثنا، فالوقت يداهمنا، كنا نحمل أغراضا كثيرة وثقيلة، أطعمة وأدوية، في الداخل لا يوجد شيء. كل شيء يأتي من تركيا.

ركبنا السيارة واتجهنا نحو الداخل. في طريقنا نقط تفتيش كثيرة، منها التابعة للدولة الإسلامية ولأحرار الشام ولجبهة النصرة، وقد اتفقت مع السائق أن يكون المجيب الوحيد على كل سائل في الطريق، في غياب الأمن يمكن أن نتعرض للاختطاف.

في كل مرة تستوقفنا عناصر يسألوننا نفس السؤال:

العنصر: من وين الشباب؟

السائق: من حلب.

العنصر: لوين رايحين؟

السائق: لزيارة بعض الأهل والأصدقاء.

عرفت بعدها أن الإعلاميين مطلوبون من طرف كل الفصائل، ويمكن أن تقدم نفسك بأية صفة إلا أن تكون إعلاميا.

في الأفق تبدو الأمور هادئة، بسرعة يقود السائق، يقول إنه يجب ألا تدركنا صلاة المغرب ونحن في الطريق، فعند المساء تقصف الطائرات الحربية أي ضوء يتحرك.

في الطريق واضحة آثار الحرب والقصف، الدمار يعم كل مكان، بيوت مدمرة ومزارع محترقة، والطريق نفسها تحمل معالم وآثار العربات العسكرية الثقيلة، هنا دارت حرب عنيفة، يقول السائق، هاجم الطيران الحربي «الثوار في هذه المدينة، وقاوموناه وتمكنا من السيطرة على إحدى الثكنات هناك، لكن هي الآن في قبضة الدولة الإسلامية وجعلتها معسكرا تدريبيا». Top of Form

حلب مدمرة عن آخرها...

التقيت بعدد من المقاتلين من ألوية مختلفة، الكل هناك يشيد بالمغاربة الذين يقاتلون إلى جانبهم وفي الخطوط الأمامية، وزرت بعضا من مصانع الأسلحة، وأيضا المقابر، يسألونني دائما سنفتح المغرب بعد الأردن، لا أقدر على الاعتراض، ولا حتى على مجاراتهم في النقاش، يقولون أيضا إن العدد الكبير من القتلى بسبب الاستعمال الخاطئ للأسلحة والتخزين السيء للقنابل، التي تنفجر في بعضها البعض وتقتل منهم.

كان أحدهم يستمتع بتجهيز مدفع «عمر بن الخطاب» يقول إنه موجه للشيعة والخوارج الذين يقاتلون إلى جانب الجيش السوري.

وفعلا كل الأزقة والمساجد والأماكن التي زرتها خفية تحمل اسم «حسين» عليها وشعارات من قبيل «لبيك حسين» لم أستطع التأكد من صدقيتها لأنه لا مجال لذلك.

وما هي الجبهات التي تمكنت من زيارتها في سوريا أيام الحرب الطاحنة؟

■ من بين الجبهات التي زرتها جبهة مطار «كويريس» ومطار سجن حلب المركزي، كانت هناك اشتباكات عنيفة تدور بين المقاتلين وعناصر الجيش الحكومي، لكن ضربات الطيران أخطر من كل شيء، كانت فعلا القنابل تنهال على جنبات السجن بشكل جنوني وكأنها مطر.

في أحد الأسابيع حضرت عملية إطلاق سراح سجناء من سجن حلب، كان عددهم تسعة، وذلك في إطار صفقة لتبادل الأسرى مقابل الطعام يشرف عليها الهلال الأحمر السوري.

سلكنا الطريق من وسط حلب من عند مصانع حلب حيث لواء أحرار الشام، هؤلاء كانوا يرعون الاتفاق، يقولون إنهم يصبرون على السجن خوفا على حياة 10000 سجين بداخله. لقد طال أمد حصاره.

بلغنا مستشفى الكندي، وهو أحد المعاقل الكبيرة للجيش يقع في مرتفع يكاد يضبط كل صغيرة وكبيرة في هذا الجزء من حلب، قال لي السائق اخفض رأسك، وبسرعة مر الموكب دون أن يتوقف إطلاق النار، سيارات تابعة للهلال الأحمر متوجهة للسجن تتعرض لإطلاق نار، ولقد كان صراحة إطلاق نار من كلا الطرفين.

بعد كلل وملل وخوف ورصاص يمينا وشمالا، وصلنا إلى ظهر سجن حلب المركزي.

في انتظار عملية إطلاق السجناء نسمع صوت طائرة «ميغ» في السماء،

ينبهنا أحد العناصر قائلا: «ينعل عرضك يا بشار، شباب اختبؤوا ممكن تقصفنا الطيارة».

هربنا يمينا وشمالا إلى حين ابتعدت الطائرة، لكن مكان قصفها ظهر جليا، ماتزال تمطر محيط المطار الذي يتحصن فيه المقاتلون بالبراميل والقنابل.

بعد ساعات، أخبرنا فريق الهلال الأحمر السوري الذي ذهب لمبادلة الأسرى أن الجيش رفض العملية بل هددهم باعتقالهم، ساد التوتر المكان.

أبو خالد الذي ينتسب لأحرار الشام اشتد غيظه، اتصل بعناصره وهو يتوعد، قال لي إن صبرهم على المستشفى قد نفد.

وما هي إلا ساعات حتى تمت العملية، يريد الجيش السوري أن يظهر دائما أنه في موقع قوة وليس العكس.

موكب السيارات القادمة ينبئ بخبر سار، فلأول مرة يتم إطلاق سراح أشخاص محكومين بالإعدام، يبدو أن الإعدام في سوريا يكون لأشياء تافهة جدا جدا.

أبو عبد الواحد من المسرحين، يحكي وقد قضى في السجن نحو أربع عشرة سنة، بوجه شاحب وعينين غارقتين جاحظتين يتمنى الموت على رؤية حلب مدمرة. يقول إنه تم إنزال كل المساجين في الطوابق العلوية إلى الطوابق الأرضية، ما يعني أن الغرف أصبحت تضم عشرة أضعاف قدرتها الاستيعابية، والسبب تعرض الطوابق العليا للقصف.

أما ما يقوم به الضباط والشرطة المسجونون هم أيضا بسبب الحصار على السجن من تعذيب واستغلال للسجناء فتلك قصة أخرى، يقول أبو عبدو.

انهيت المقابلات وسلكنا الطريق إلى داخل حلب بنفس السرعة ونفس الخوف والترقب.

في أحدى المدن التابعة لحلب واسمها الباب، كادت الميغ تفقدني حياتي، لأول مرة يسقط صاروخ على بعد كيلومتر مني. كان الخطب جللا، تحركت الأرض من حولي وكدت أفقد السمع، كنت أسجل تصريحا لإحدى العائلات التي انهار منزلها بسبب قذيفة. وفجاة صاروخ ينزل على عمارة من خمسة طوابق لم يسلم منها إلا طفل صغير، الله من حفظه ولا أحد يعلم كيف.

لكن أخطر شيء كان يقلق في سوريا هو الصواريخ الفراغية، دائما كنت أحمل معي مناشف مبللة، الصاروخ الفراغي يقوم بامتصاص الأكسجين أينما كان حتى من داخل الرئة، وعليه لابد من وضع كمامات مبللة لتقليل ذلك.

في الليل أقتنع بضرورة الشهادة مرة الى مرتين في الليلة الواحدة، على وقع الصواريخ والقذائف وعلى أصوات الطائرة أستفيق مرات عدة، في إحدى الليالي وبينما كنت أكتب أحد التقارير نزل صاروخ بالقرب من بيتنا، تكسرت النوافذ، هيستريا أصابت الفريق، هرعنا إلى أسفل الدرج وطلبنا الرحمة من الله.

كانت تحركاتنا مراقبة، وكنا دائما مهددين بالاختطاف.

صورة تؤرخ لأيام الحرب الدامية بدولة مالي